فرانز فانون ، فكره السياسي

د. سعاد شيخاني

أثبت إنسان العالم الثالث في القرن العشرين ، وبعد الحرب العالمية الثانية على وجه الخصوص ، قدرة فائقة على التطوّر العلمي والفكري في كثير من الأحيان . ذلك أنّ الاستعمار والاستغلال اللذين مارستهما عليه الدول الغربية المتطورة جعلته يعيد النظر في واقعه المؤلم ، ساعياً إلى تحرير نفسه وأبناء قومه . وليست أعمال فرانز فانون ، إضافة إلى سيرته الذاتية ، إلا تأكيداً لهذه الحقيقة .

ونحن إذ نبدأ بعرض سريع لسيرة فانون الخاصّة فذلك بسبب الصلة الوثيقة بين أعماله الفكرية وحياته اليومية . فمن المعروف أنّ فانون من أصل افريقي أسود ، وأنّ الرجل الأبيض استقدم آباءه وجدوده من أفريقيا السوداء إلى جزر أميركا الوسطى لاستخدامهم كعبيد ، واستغلالهم بأبشع الصور الممكنة . إلا أنّ هؤلاء العبيد استطاعوا بعد كفاح مرير التحرر من استغلالهم ، ونالوا حريتهم ، فأبطلوا صكّ عبوديتهم واستعادوا دورهم الإنساني الصحيح ، حتى إنّ فئة منهم أصبحت تشكل طبقة برجوازية صغيرة سوداء في هذه الجزر ، ينتسب إليها مفكرنا فرانز فانون .

تطور فكره السياسي عبر حياته اليومية

ولد فرانز فانون في العشرين من تموز ـ يوليو ، سنة ١٩٢٥ ، وسط عائلة تنتمي للطبقة البورجوازية الصغيرة ، في « فور ـ دي ـ فرانس » (Fort de France) عاصمة جزيرة المارتنيك ، إحدى المستعمرات الفرنسية[١] . وأتمّ دراسته الابتدائية والثانوية في مدرسة خاصة ، فكان بذلك من المحظوظين ؛ إذ إنه لم يكن باستطاعة أكثر من نسبة ٤٪ من أبناء السود الالتحاق بتلك المدارس التي أسسها المستعمرون الفرنسيون وتولوا إدارتها . أما ما تبقى من أتراب فانون من أبناء السود فكان عليهم الالتحاق بالمدارس الحكومية التي لا تصل إلى مستوى المدارس الخاصة بحال من الأحوال .

انصهر فانون في هذه المدرسة ، وبطريقة لا شعورية بحضارة وثقافة غريبة عنه ؛ فأصبح ينطق ويتصرّف وكأنّه أحد الباريسيين ، وكان همّه الأول أن لا يُعَيَّر بأجداده السود . وقد استمرّ على هذه الحال حتى سنة ١٩٤٣ ، عندما انهارت فرنسا تحت ضربات الألمان المتتالية ، وكان فانون قد نال البكالوريا . وكان كأترابه من المتخرجين السود يعرف حضارة فرنسا وثقافتها وتاريخها بمقدار ما كان يجهل حضارة قومه وثقافتهم .

كانت نقطة التحوّل الرئيسية الهزيمة التي مُنيت بها فرنسا في الحرب العالمية الثانية أمام القوات الألمانية ومجيء « فيشي » للحكم ، ونداء الجنرال ديغول لتحرير فرنسا من النازية ، فقد دفعت هذه الأحداث بفرانز فانون وأكثرية شبان المارتنيك للتطوّع في جيش التحرير الفرنسي تلبيةً للواجب .

هكذا وجد فرانز فانون نفسه سنة ١٩٤٤ في أفريقيا ، أرض الأجداد . غير أنّ التميز الطبقي والعنصري الذي كان يفرّق ما بين عربي وفرنسي وسنغالي ومارتنيكي داخل الجيش الفرنسي جعل فانون يلمس لمس اليد وجود منهجية طبقية وعنصرية من غير أن يكون قد تعرّف بعد إلى الفكر الماركسي . عاد إلى المارتنيك في السنة نفسها بعد أن دخل فرنسا مع الجيش الفرنسي . في المارتنيك عاد ليكمل القسم الثاني من البكالوريا ، غير أنه بدأ يهتمّ بتيارات فكرية غير التي عرفها في دراسته حتى ذلك الحين . فاطّلع على ماركس وهيغل وجاسبر ونيتشه ، دون أن يكون لتلك المطالعات أثر مباشر في تغيّر تفكره ونظرته للأمور ، أما التأثير المباشر فقد كان أبلغ مما كان يبدو في الظاهر .

نال فانون سنة ١٩٤٦ منحة دراسية من الحكومة الفرنسية لمتابعة دراسته في فرنسا باعتباره أحد رعايا تلك الدولة ، فتحقّق بذلك حلمه في متابعة دراسة الطب . ولم تمنعه دراسة الطب في فرنسا من ممارسة نشاطات فكرية أخرى ، أهمها انضمامه إلى حلقات فلسفية لمناقشة الفكر الوجودي والفلسفة الوجودية السارترية .

أما في مجال الطب ـ وكان حقل تخصص فانون الطب النفسي ـ فقد أتاحت له دراستُه الفرصة لتحسس مشاكل مرضاه عن كثب ، وكان هؤلاء في أغلبيتهم من العمال التابعين لشمال أفريقيا والسنغال . كان هؤلاء يعانون من ازدواجية في الشخصية كمضطهدين ومسلوبي الثقافة في آنٍ معاً . وقد أتاح وصول فانون إلى هذا التشخيص الطبي الفرصة أمامه لتحديد سبب الداء : ألا وهو العنصرية . وقد دفع به هذا الاكتشاف إلى التعمّق في دراسته لهذه المشكلة عبر معالجته مرضاه . هكذا تلوّنت نواة كتابه الأول : **بيض الأقنعة سود البشرة** الذي نشر فيما بعد سنة ١٩٥٢ في باريس .

يتألف هذا الكتاب من مقدمة وسبع دراسات يعالج فيها الكاتب مشكلة التميز العنصري التي يعاني منها الأسود ، ويتبع ذلك كله بخلاصة يوجز فيها مجمل النتائج التي توصّلت إليها الدراسات .

تتناول الدراسة الأولى موضوعاً هاماً وهو استعمال الأفريقيين اللغة الفرنسية ، في حين تتناول الدراسات الثلاث التالية موقف الكاتب الأسود من العنصرية . أما الدراسات الثلاث الأخيرة فهي عبارة عن عملية نقد

بالغ للعنصرية يمارس عبره الكاتب منهج التحليل النفساني معتمداً بتحليله على نظريات فرويد وآدلر وهيغل. وباختصار، يجسد كتاب « **بيض الأقنعة، سود البشرة** » التناقض الفكري الذي كان يسيطر على فانون في ذلك الحين، والذي يمكن تلخيصه بأنه كان يترجّح بين المثالية من جهة والواقعية من جهة أخرى.

تعتبر دراسات هذا الكتاب البداية الأولى للحياة الفكرية لإنسان مستلب الثقافة يبحث عن الوسيلة التي تحرّره من هذا الاستلاب، وهي في الوقت نفسه تظهر واقع حال المفكّر المضطهَد الذي يبحث عن فلسفة تعكس وتوضح واقعه[٢]، كما يقول سارتر. هذه الازدواجية واضحة في كتابه هذا بدءاً بالأسطر الأولى في المقدمة؛ فهو يقدّم عمله الأول هذا على أنه صرخة من أجل « إنسانية جديدة ». غير أنّ هذا الحلم ما يلبث أن يتلاشى، فيعود بصاحبه إلى عالم الحقيقة والواقع بعيداً عن الأوهام، الأمر الذي يظهر بوضوح في آخر المقدمة حيث نجده يؤكد أنّ « هذا المؤلَّف عبارة عن دراسة تطبيقية في الطب النفسي »[٣]، وهذا الترجّح، هو الذي دفع بأكثر نقاده إلى تأكيد تناقضه كما فعل بيار بوفيه عندما قال إنه « مفكر ليبرالي متناقض التفكير ». في حين لم يرَ بعضهم في الكتاب أكثر من كتاب تعليمي تقليدي كما فعل ديفيد كوت الذي قال عن الكتاب: إنه « عمل تعليمي (didactique) »، أما رينات زهار فتصف الكتاب بأنه عمل هام في إطار دراسة سياسة الاستعمار، والاستعمار الجديد على وجه الخصوص.

إلا أنّ الدراسة التحليلية المفصّلة والمتأنية لهذه الدراسات التي تناولت « **بيض الأقنعة سود البشرة** » تؤكد أنّ عمل فانون هذا يدخل في عداد الدراسات الوصفية لوضع الإنسان الاسود، والتي لا تخرج عن حدود وصف تشكّل نواة وعي عملي ثوري فاعل عند هذا الإنسان (La conscience de la praxis revolutionnaire) الذي يعني حسب التعريف الماركسي محاولة تغيير البنية الاجتماعية ليس بالتأمل بل بوسائل عملية. وإذا كان الكاتب يسعى لإيقاظ روح التأمل عند السود عند نقده العنصرية، إلاّ أن هذا النقد يبدو سلبياً، يحضّ الأسود على التكيّف والاندماج أو الانصهار في بيئة تضمّ « الأنا الأسود » و« الآخر » المستعمِر الأبيض جنباً إلى جنب، دون أيّ تغيير أساسي وجذري في طبيعة العلاقات بين الطرفين. وهذا الحل السطحي يستبدل الإدراك الجدلي المحسوس للعلاقة التناقضية بين الطرفين بمصالحة مستحيلة التحقيق بين المواطن الأسود صاحب الحق والمستعمر، أو بين المظلوم والظالم، وبذلك يتحول البحث إلى تحليل نفسي فينومنولوجي للعنصرية، يهتمّ بدراسة الظاهرة كما تبدو دون النظر إلى ما ورائها من حقائق. وهكذا يظهر أن فانون في كتابه الأول هذا كأنه يحاول أن يعقد مصالحه بين الطرفين المتناقضين في إطار « الأخوة » الإنسانية بين الأسود والأبيض، وهذا إنما يؤكد أنه كان لا يزال متأثراً بأفكار مرحلة دراسته الأولى، يؤكد ذلك موقف فانون نفسه في أواخر حياته عندما أعلن تمنّيه أن يتاح له الوقت ليمزّق هذا الكتاب ويعيد صياغته من جديد، إلا أن ظروفه الصحيّة لم تكن تسمح له بذلك.

وتحليل فانون النفسي التأملي والاستاتيكي المسطّح هذا إنما هو خطوة طبيعية إلى الأمام بعد مرحلة

المدرسة الفرنسية ومرحلة التطوع في جيش تحرير فرنسا. ومع أن هذه الخطوة أساسية وضرورية على طريق تطور تفكيره السياسي الذي يترافق وتجربته الثورية كما سنرى فيما بعد، إلا أنها ليست خطوة جذرية حاسمة نقلته من موقع إلى موقع؛ فعندما نال شهادة الطب عاد إلى المارتنيك حيث لم يلبث طويلاً حتى عاد إلى فرنسا ليتزوج من فرنسية، وليعيّن طبيباً في عيادة «سان ـ ألبان ـ دي ـ لوزار»، حيث عمل مع الدكتور «توسكل» الإسباني الذي أحدث طريقة علاجية حديثة معروفة في عالم الطب النفساني تتلخص في معالجة المرضى بإعادة توافقهم وملاءمتهم مع بيئتهم بدلاً من عزلهم عنها. وعندما عُيّن فانون طبيباً نفسانياً في مستشفى «بليدا» في الجزائر سنة ١٩٥٤، أخذ بتطبيق نظرية «توسكل» في المعالجة، ساعياً إلى إعادة تكيّف المرضى النفسانيين مع المجتمع، بدلاً من الأخذ بالطريقة التقليدية التي تقضي بعزلهم.

في «بليدا» أُتيح لفانون المجال لمعايشة الثورة الجزائرية عن كثب خلال السنوات (١٩٥٤ ـ ١٩٥٧)، فشارك فيها في حدود عمله كطبيب أولاً، ثم تطوّر دوره بعد ذلك، فأخذ يدرّب الثوار على الإسعافات الأولية، ويساعد في تخبئة المطلوبين من قبل قوات الاستعمار.

وبالإضافة لعمله كطبيب ومساندته للثورة الجزائرية، كانت لفانون نشاطات ومساهمات فكرية متعددة، منها: مشاركته في المؤتمر الدولي للأدباء والفنانين السود الذي انعقد في باريس، خريف سنة ١٩٥٦. وقد أثار ذلك كله إدارة الاستعمار الفرنسية التي أوقفت العديد من مساعديه وأخضعتهم لمختلف أساليب التعذيب. وكان أن أدرك فانون استحالة التزامه بأفكاره مع استمراره في العمل مع السلطات الحكومية الفرنسية، فاتخذ قراره الحاسم وقدّم استقالته من عمله وقرّر الالتزام كليّاً بالثورة الجزائرية؛ فتطوع في صفوف جبهة التحرير الجزائرية، وعمل مسؤولاً عن الإعلام وعضواً في لجنة تنظيم الإعلام الثوري، وكان يحرّر في «المجاهد» اللسان المركزي للجبهة، محلّلاً دور المستعمر الفرنسي وأساليبه، مستفيداً من دراسته في ميدان التحليل النفسي. فكانت مقالاته دراسة عملية وتحليلاً نفسيّاً على أرضية الواقع لأساليب المستعمر القمعية التي كانت تستهدف تطويق الثورة الجزائرية واغتيالها قبل استفحال أمرها.

قام فانون بدور هام في الثورة الجزائرية، وساهم بطاقاته كلها في هذه الثورة، عضواً في لجنة الإعلام، ومسؤولاً عن الإعلام، ومحرّراً ثوريّاً، ومحلّلاً، وناقداً، وعضواً في وفد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية إلى مؤتمر وحدة الشعوب الافريقية الذي عقد في «أكرا» سنة ١٩٥٨، فكان مقاتلاً ثوريّاً حقيقياً بكل ما للكلمة من معنى.

بعد عودته من مؤتمر وحدة الشعوب الافريقية، باشر فانون بوضع كتابه الثاني: «سوسيولوجية ثورة»، وهو عبارة عن تحليل اجتماعي للثورة الجزائرية بعد مرور خمس سنوات على انطلاقها. وقد انتهى من وضع كتابه في السنة التالية، حيث نشر في باريس[٤].

ونقطة الاختلاف الجوهرية بين « **سوسيولوجية ثورة** » و« **بيض الأقنعة سود البشرة** » تتلخص في الاختلاف بين منهجين من مناهج التحليل النفسي. الأول استاتيكي جامد سلبي، والثاني ديناميكي فاعل وإيجابي، يقدّم فانون عبره وصفاً تحليلياً حيّاً لمجتمع يقاوم في سبيل حريته. وعلى هذا أصبح كتاب « **سوسيولوجية ثورة** » وثيقة تاريخية يظهر من خلال صفحاتها تاريخ شعب وتقاليده وكيفية تصرّفه مع الأحداث التي يعيشها.

يعالج فانون في هذا الكتاب مختلف أشكال تقاليد المجتمع الجزائري خلال زمن المقاومة، مثل مسألة خلع المرأة حجابها ومشاركتها في الثورة، ومثل تبدّل موقف الجزائريين من الطب الحديث، ويبحث في وسائل إعلام ما قبل الثورة وإبّانها، كما أنه يصف التطور الذي حدث في العلاقات العائلية خلال الثورة. لم يكن وصفه هذا يهدف إلى تفضيل ثقافة على ثقافة أخرى، أو تمجيد حضارة على حساب أخرى، بل ليظهر تطوّر موقف الجزائري حيال المستعمر وأثر الثورة في هذا التطور. هذه السيرورة في التحليل تهدف لإظهار عامل الاستلاب (aliénation) الذي يفرضه مجتمع الظالمين على المظلومين؛ فالعلاقة الجدلية التي تنبثق عن مثل هذا الوضع هي التي تقرّر الاختيار الذي يلتزم به المستغلّ المظلوم في سعيه لتحرير نفسه من الآخر. ويأخذ الالتزام هنا طابعاً جماعياً يشمل المجتمع بكامله، وهو التزام عفوي؛ لأنه التزام تقرّره طبيعة العلاقة بين المستغِلّ والمستغَلّ قبل أن يقرّره الاختيار الثوري أو الايديولوجيا الثورية. وهذا الالتزام العفوي الذي يتحدّث عنه فانون في « **سوسيولوجية ثورة** » يأخذ شكله النهائي عبر « البراكسيس الثورية » (la praxis révolutionnaire)، أو « الوعي الثوري العملي »، وهو موضوع كتاب فانون الأخير: « **معذّبو الأرض** ».

تعرّض فانون سنة ١٩٦٠، أي بعد فترة وجيزة من نشر « **سوسيولوجية ثورة** »، لحادث سيارة، يقال أنه حادث مفتعل، غير أنّه نجا منه بعد معالجة دامت عدة أسابيع في روما. وعند عودته تابع فانون نشاطاته المهنية والسياسية، وعُيّن عضواً في الوفد الجزائري في تونس، ومن ثم سفيراً للحكومة الجزائرية المؤقتة في « أكرا » التي كانت تقوم في ذلك الحين بدور مهمّ ضد الإمبريالية الاستعمارية، وذلك عبر مساعداتها الحركات الثورية جميعها في افريقيا؛ كما أنّه كان الممثّل الرسمي للحكومة الجزائرية في المؤتمرات الافريقية جميعها التي عُقدت سنة ١٩٦٠. غير أنّ القدر كان له بالمرصاد، حيث أُصيب بسرطان في الدم، أرسل على أثره للمعالجة في روسيا، ومن ثم في أميركا، ولكن دون جدوى. وقد دفع به هذا إلى العودة لقضاء ما تبقى له من عمر قصير بين المقاتلين الجزائريين في الجبال. وفي نيسان (أبريل)، سنة ١٩٦١، شرع فانون بتحرير رسالته إلى معذبي الأرض من الافريقيين ومن شعوب العالم الثالث، وكان قد أسماها باسم هؤلاء: « **معذبو الأرض** ».

« **معذبو الأرض** »[٥] دراسة مبدعة تعتمد الطريقة السوسيو فنومنولوجية وفقاً للنظرية الفلسفية الماركسية. غير أنّ فانون يوسع من دور « العنف » في العملية الثورية، كما يتوسّع في وصف العنف وتحليله. فإذا كان كل من ماركس ولينين تحدّث عن نظرية العنف عبر تحليل الأنماط العملية للثورة على الطبقيّة، فإن

فانون يحلّلها عبر عملية تحرّر المستعْمَر من المستعْمِر. وخلاصة موقف فانون في هذا الموضوع أن الثورة تمرّ بثلاث مراحل رئيسة: في البداية، أي في المرحلة الأولى للاستعمار يكون العنف ميزة المستعمِر؛ وفي المرحلة الثانية يتحوّل العنف إلى الداخل، ينهش المجتمع عبر الاختلافات الداخلية القبلية والعشائرية المتواصلة؛ وفي المرحلة الأخيرة تنقلب هذه الأداة ضد المستعمِر، لتقضي عليه في نهاية الأمر(٦).

يقوم فانون بعملية تحليل نفسي لمسيرة العنف في ظلّ النظام الاستعماري، وهو يرى وفقاً لهذا التحليل أنّ العنف يتطوّر من عنف ضد السلطة التقليدية التي تتصف بصفة الجماعية الفوقية أو «أنا جماعية» مكوّنة من فئة أصحاب المصالح تستغِلّ الآخرين أو الأكثرية المستعبَدة بالقوة. وعندما يصل المستعمِر إلى هذا الهدف وهو ضرب الأنا الجماعية للسلطة المحلية يتحوّل عنفه إلى الجماعة نفسها، أي إلى الأكثرية بهدف تثبيت وجوده كنظام مستعمِر. إلا أنّ عنفه الأول ضد السلطات المحلية يتوقف على عناصر خارجية بالدرجة الأولى، وأهم هذه العناصر آلته العسكرية الضاربة؛ أما في المرحلة الثانية وهي مرحلة تثبيت الوجود، فإن العنف الأول يُدَعّم بعناصر داخلية، أبرزها خلق التناقضات والأحقاد بين الفئات الاجتماعية المختلفة من عرب وبربر، وذلك بالتركيز على خصوصية كل فئة وما يميزها عن غيرها من الفئات، وهكذا تتغذّى الأحقاد الداخلية وتنمو. إلا أنّ هذه الأحقاد سرعان ما تتحوّل ضد المستعمر الذي يستفيق ليجد نفسه يعيش في دوامة من الرفض والمعارضة والمحاربة، لا يعرف مصدرها، ولا كيف خرجت إلى الوجود مع أنّه هو نفسه الذي كان مصدرها أولاً وأخيراً.

هكذا يجد المستعمِر نفسه في وضع تهديم ذاته كمستعمِر. وكلما زاد استلابه للآخر، أي للمستعمَر المظلوم والمضطهد، وكلما تطور هذا الاستلاب على حساب ثقافة الشعوب وتقاليدها وعاداتها وأسس تركيب مجتمعاتها، استيقظ الوعي الوطني العفويّ عند هذه الشعوب، لتدخل في صراع مباشر وعنيف مع المستعمِر، في سعيها لتحرير نفسها.

غير أن العنف العفوي لا يمكن أن يؤدّي إلى وعي عملي ثوري يؤتي ثماره إلا عندما يتسيّس هذا العنف ويقوم على وعي سياسي يحقق عملية التحرّر وفق فلسفة علمية تقيد تركيب البناء الاجتماعي؛ فالعنف العفوي يختلف عن العنف الثوري. صحيح أنّ العنف العفوي هو مقدمة للعنف الثوري، إلا أن فانون يرى أنه لا بدّ أن ترافق هذا العنف ثقافة سياسية تعيد تنظيم الشعب وتسمح بتعبئته تعبئة لا تهدر طاقاته، بل تجنّدها تجنيداً كاملاً في مقاومة الاستلاب ورفض سياسة الاستعمار. هكذا يتحوّل العنف إلى عنف ثوري يرافق تسيّس الجماهير الذي سرعان ما يخرج من الحدود الإقليمية والقومية ليلتحم مع تسيّس جماهير الشعوب الأخرى في العالم الثالث مساهماً في خلق إنسان من نمط جديد غير النمط الذي كان يعرفه العالم الثالث قبلاً.

وقد جعل هذا التحليل للعنف الثوري في مراحله المختلفة من صاحب «**معذبو الأرض**» المعلّم الأول لنظرية العنف الثوري في وقت كانت فيه الكولونيالية الجديدة تتستّر بستار اللاعنف، مرتدية أقنعة السلام

الاجتماعي ، من أجل الحفاظ على مصالحها . وقد أدرك فانون أنّ ذلك كله ليس إلا مزيداً من الانتهازية والوصولية من قبل المستعمِر . ولما كان فانون لا يعارض السلام الاجتماعي الحقيقي ويرفض العنف عندما يكون هذا العنف فردياً ؛ لأنه عنف يؤدّي إلى إشاعة الفوضى في المؤسسة الاجتماعية ، إلا أنّه يرفض سلاماً اجتماعيّاً خادعاً ، ويبشّر بالعنف الثوري كأداة لجماعة منظّمة تواجه جماعة منظّمة أخرى . وهذا الضرب من العنف عنف شرعي ، بل ضروري في نظر فانون ؛ لأنه الأداة الوحيدة لضمان تحقيق التحرير ، إنّه المحصّلة الضرورية لعملية التحرير ، كما أنه المحصلة الضرورية لمسيرة التاريخ التي تفرضه .

وكما هو واضح ، فإنّ فانون لا يهتم بالعنف من أجل العنف ، بل هو ينظر إليه كظاهرة لا يمكن عزلها عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية المحيطة به ، وهو في الوقت نفسه يرى فيه عملية لا بدّ منها لبناء المجتمع الجديد . ولما كان الافريقيون كغيرهم من شعوب العالم الثالث ذوي تقاليد وعادات راسخة ، فقد عرض فانون نقاط القوة ونقاط الضعف في التركيبة الاجتماعية الافريقية دارساً ومحلّلاً من أجل الوصول إلى تركيبة اجتماعية جديدة ترتكز على « الوعي العملي الثوري » .

وقد وجد فانون أنّ التركيبة الاجتماعية الافريقية تختلف في طبيعتها المادية والمعنوية عن التركيبة الاجتماعية في الغرب ؛ فافريقيا من ناحية غنية بالثروات الطبيعية والزراعية ، في حين أنها تعاني فقراً واضحاً في التكنولوجيا والصناعة ، وهي من ناحية أخرى عشائرية وتخضع لاعتبارات إثنية وعرقية بعيدة عن الرؤية العصرية للمجتمع . ومن هنا فإنّ تحرر افريقيا الحقيقي لن يتمّ بنقل السلطة من رجل أبيض إلى رجل أسود ، أو بنقلها من يد غريبة الى يدٍ قريبة ، وإنما بإعادة التركيبة الاجتماعية وفق منهج جديد فالأكثرية الساحقة من الأفريقيين ـ فيما يرى فانون ـ هي من الفلاحين ، في حين أن البورجوازية الافريقية لا تشكّل إلا أقلية صغيرة تتألف من بعض التجار الصغار ، ومن بعض الملاكين لا يزيد نفوذها الاقتصادي عن العمل في قطاع الخدمات والتأمينات والتجارة . ومع أنّ هذه البورجوازية لا تصل إلى مستوى البورجوازية الأوروبية ، ولا تستطيع التحوّل إلى بورجوازية صناعية ، وبالتالي تكوين مجتمع صناعي تكنولوجي متقدم ؛ إلا أنها تُصِرّ على التمسك بمختلف مظاهر حياة البورجوازية الأوروبية . وهي دائماً تسلك أهون السبل إلى الكسب السريع والعيش في بحبوحة اقتصادية على حساب الشعب والوطن .

بعد الإسهاب في الحديث عن العنف المادي الذي هو حسب تحليل فانون الأداة الأساسية لتحرير شعب من سيطرة شعب آخر . ينتقل المؤلف إلى الحديث عن أسباب الضعف الأخرى ، وهي انفصام قادة الثورة وتأثرهم بفكر المستعمِر وطريقته في الحياة ؛ ففي مطلع الباب الثاني من كتابه الأخير وهو بعنوان : « **العفوية في عظمتها وضعفها** » ؛ يقول فانون : « أوصلتنا تأملاتنا فيما يختصّ بالعنف إلى وجود اختلال متعدّد الوجوه وعدم وجود التوازن بين الحزب الوطني من جهة والجماهير من جهة أخرى . ويعود ذلك لوجود هوّة تفصل بين أيّ حزب سياسي أو نقابي والجماهير التي تنشد باستمرار تحسيناً مباشراً وكاملاً لجوانب حياتها

المختلفة »[٧]. في هذا الباب يعطي فانون تحليلاً دقيقاً لهذه الهوّة التي تفصل بين قادة الأحزاب الوطنية والجماهير؛ إذ إن توجّهات هذه الأحزاب تتبع في تقرّبها من الجماهير طريق المستعمِر؛ لأنها تتوجّه أساساً إلى البروليتاريا. غير أنها لو درستْ بدقة وضعَها المادي الواقعي لوجدت أن توجّهها الرئيس يجب أن يكون إلى الفئة التي تؤلف النسبة الكبرى من شعوب العالم الثالث، ألا وهي فئة الفلاحين التي أهملها المستعمِر؛ لأنها لم تكن «الشريان الحيوي» لمسيرة خطته الاستعمارية.

ويرى فانون أنّ المستعمِر لم يكن غبيّاً في إهماله هذه الأكثرية، إذ تركها خاضعة لزعمائها المحليين، كي يكبح إمكانية أي تطور فكري أو مادي لديها؛ لأنها في ظل وضع كهذا، تبقى وكأنّها تحيا في القرون الوسطى، دون أن تؤذي سياسته وأهدافه الاستغلالية. والأحزاب الوطنية، بدلاً من أن تعي أهداف هذه السياسة وتنهج سياسة معاكسة لها تقرّبها من هذه الأكثرية، تستمرّ في نهج سياسة المستعمِر متجاهلة هذه الأكثرية. وهذا التجاهل هو السبب في جعل الأكثرية قوة معادية؛ إذ إنّ أسياد هذه الأكثرية وزعماءها التقليديين يستخدمونها لمحاربة الأحزاب السياسية. ومن خلال تلك الزعامات كان المستعمِر يثبت نفوذه.

ويعود العداء بين الأكثرية الشعبية وقيادات الأحزاب، كما أشرنا سابقاً، إلى أنّ الأحزاب السياسية لم تدرك أهمية قوة الفلاحين وطاقتها القتالية؛ لذلك تجاهلت تسييسها وتوعيتها والعمل من أجل تحسين وضعها الاجتماعي؛ «كما أنها لم تثقفها وتشرح لها ما يجري داخل البلاد وخارجها، وقد خلّف هذا كله حقداً عند الريفيين نحو أهل المدن عامة والقيادات السياسية خاصة »[٨].

ويتابع فانون تحليله هذا لإهمال تثقيف الفلاحين وتسييسهم في العالم الثالث، مؤكداً أنّ هذا القطاع الشعبي الواسع يثور ويخلق المتاعب لحكامه الوطنيين؛ فيقع في يد الرجعية، ويخدم في الوقت نفسه أهداف المستعمر الذي يستمر في هيمنته عبر الزعامات التقليدية المتحكمة في صفوف الفلاحين، وعبر مخابراته الناشطة بالرغم من نيل أغلبية دول العالم الثالث استقلالها، وقد يؤدّي هذا مباشرة أو غير مباشرة إلى تشديد قبضة القيادات السياسية على الفلاحين وزعاماتهم، وبالتالي إلى تحوّل الأنظمة الوطنية إلى أنظمة ديكتاتورية. وهذا بدوره يخدم مصلحة المستعمِر الذي يرحّب بهذه الأنظمة الديكتاتورية ليؤكّد أن حكمه لم يكن بالضرورة أكثر سوءاً من الحكم الوطني؛ فيبرّر بذلك استغلاله للجماهير التي قد تترحّم على عهده البائد. ولا شكّ في أنّ هذا الموقف يخدم مصلحة المستعمِر المستفيد من التناقض بين كادرات الأحزاب الوطنية وجماهير الريف؛ فهذا التناقض يستنفد طاقة الطرفين الوطنيين ويبقي البلاد في دوامة التخلف والتأخّر.

وتأكيداً لصدق تحليله العلمي هذا يعود فانون إلى إثباته على الأرضية الجزائرية؛ فالثورة الجزائرية لم تنجح إلاّ عن طريق الالتحام الكلي بين الكادرات السياسية والجماهير الريفية؛ فاتحادهما هو الذي ضمن النجاح لهذه الثورة ودفعها لإيجاد طرق وسبل أكثر فعالية من أسلحة العدو المتطوِّرة؛ إذ إن الجزائري الريفي، حبّاً بالحفاظ على كرامته وكرامة أرضه، حوّل حربه مع العدو من حرب دفاعية إلى حرب هجومية

عندما نقل العنف إلى مراكز التجمّعات السكانية للمستعمِر نفسه. وفي هذا المجال يعطي فانون دوراً مهماً لما يسمى بالبروليتاريا الرثّة؛ فقد استعادت هذه الفئة من الجزائريين العاطلين عن العمل والشحاذين إنسانيتها بدخولها معركة القتال ضد المستعمِر؛ فاندفاعها في هذا المجال أعاد لها اعتبارها بين صفوف الشعب، وقد أثبتت هذه الفئة قدرة غير متوقعة على إدراك معنى الوطنية ومفهومها. ويشبه وضع البروليتاريا الرثّة وضع فئة المومسات وما شابهها اجتماعياً؛ فقد أعادت لهؤلاء اعتبارهم الإنساني بإدخالهم المعركة من منطلق وطني وشعور عفوي بالواجب.

هنا أيضاً نعود إلى نقطتنا الأساسية في نقد نظرية فانون، فهو يركّز على الوحدة الوطنية في القتال، غير أنه يهمل نوعاً ما دافع هؤلاء الأساسي من انخراطهم في القتال، وهو رغبتهم الحثيثة في التخلص من أوضاعهم الاجتماعية الصعبة، فمن خلال اشتراكهم في تحرير الوطن كانوا يحرّرون أنفسهم من أوضاع اجتماعية تقليدية واقتصادية رثّة حرمتهم من ممارسة إنسانيتهم حتى قيام الثورة.

يشدّد فانون على موضوع تسييس الجماهير الافريقية، ويبرز دور الريفيين في معركة التحرر الوطني في أغلبية الدول التي تحرّرت، أو هي في طريق تحرّرها من المستعمر، مثل أنغولا والكونغو وكاتنغا وغيرها. وهو يبيّن كيف أنّ الحقد العنصري لا يقوم مكان برنامج سياسي مدروس، إلا أنه لا يضع في حسابه الدوافع الحقيقية لاشتراك هؤلاء في القتال في معركة التحرّر الوطني. وقد وقع الكثير من قادة حركات التحرّر الافريقية في الخطأ نفسه، ولم يدركوا أهمية ربط البرنامج السياسي بمصالح المواطنين المعيشية وهمومهم اليومية، إلا بعد أن خسروا الكثير من عناصرهم المقاتلة؛ لذلك كان عليهم فقط تسييس شعبهم محليّاً بل أن يشرحوا لمقاتليهم سياسة المستعمِر وتكتيكه المتعدّد الأوجه، وأغراض السياسة الاستعمارية، وعلاقة ذلك كله بالمواطن نفسه وبحياته ومستقبله. وإذا كان فانون يؤكد في نهاية هذا الباب أنّ العنف العملي الثوري المنظّم من قبل القادة يسمح للجماهير فهم الواقع الاجتماعي الذي يعيشونه ويساعدهم على تخطّيه، إلا أنّه لم يطوّر البحث في هذه النتيجة، ولم يصل بها إلى مستوى النظرية الواضحة.

أما الباب الثالث وهو بعنوان «مغامرات الوعي الوطني»، فيتناول فيه المؤلف عدة جوانب أساسية من جوانب التحرّر الوطني الصحيح؛ فهو يطرح موضوع ديمقراطية الحكم الوطني من مختلف جوانبه، من خلال نقده الحكم الديكتاتوري الذي يلي الاستعمار، والذي يرتكز على السيطرة العسكرية وتأييد البورجوازية الصغيرة من أصحاب المهن الحرة. وهو يبيّن أنّ عدم وجود بورجوازية حقيقية تملك زمام الوضع الاقتصادي كما هي الحال في الغرب يجعل البورجوازية الصغيرة في وضع تعتمد فيه اعتماداً شبه كلي على الغرب في تأمين حاجاتها من الإنتاج الأجنبي، بدلاً من أن تبني اقتصاداً متكاملاً منتجاً يجمع بين زراعة متطوّرة وصناعة مستقلة عن الغرب. بعد ذلك ينتقل فانون للحديث عن موضوع في منتهى الأهمية، وهو موضوع دور العسكر في معركة التحرّر الوطني وأثرهم السلبي على سير المجتمع بعد الحصول على التحرّر إذا ما أصرّ هؤلاء على

الإمساك بزمام الأمور بسبب جهلهم الأمور السياسية والاقتصادية على حدٍّ سواء. فالعسكر يركّزون على تدعيم سلطتهم في ظلّ غياب سياسة اقتصادية تؤمّن للبلاد الاستقلالية السياسية والاقتصادية التي هي عماد الاستقلال الحقيقي. وهذا يعكس نفسه بصورة مختلفة على مستقبل افريقيا ككل؛ لأن افريقيا تحتاج إلى الوحدة الاقتصادية والسياسية التي تعطيها القوة وتعطيها الاستقلال. وعدم وجود هذه الوحدة يعود بالبلاد إلى التشرذمات الإثنية والطائفية؛ الأمر الذي يقود في بعض الحالات إلى تميّز عنصري حضاري داخل القارة السوداء؛ فحضارة الشمال هي امتداد لحضارة الغرب، وحضارة الجنوب هي امتداد لحضارة الغابات. ويصف فانون هذه النزعات والمنازعات على أنها أخطر من الاستعمار الأبيض نفسه؛ إذ إنها تبعد وتقتل أي تخطيط لسياسة اقتصادية موحّدة، تجعل من افريقيا قوة عالمية ضاغطة. والبورجوازية الصغيرة في افريقيا هي المسؤولة، في رأيه، عن تلك الانشقاقات، وعن عدم وجود مخطّط سياسي واقتصادي لتوحيد القارة الأفريقية. وهي على عكس قادة الثورة تفكر في مستقبلها وتخطّط له على ركام أي مخطّط اقتصادي موحّد، وذلك عبر إيهامها قادة الثورة بمساعدتهم، بخلقها فكرة الحزب الواحد، الذي يقود حتماً إلى ديكتاتورية تخدم مصالح تلك الطبقة بالذات، حيث تحافظ على وجودها بقمع أكثرية الشعب من مدنيين وريفيين[٩].

وينتهي في تحليله هذا الموضوع مؤكداً أنّ «البلدان المتخلفة لن تشهد قيام حكم البورجوازية... وأنّ أيّ سعي في هذا السبيل نهايته الفشل... فالجهود المتحدة للجماهير المسيّسة حزبياً وللمفكرين الواعين والمتسلمين بمبادىء ثورية يجب أن تقطع الطريق على وجود بورجوازية جديدة لا جدوى من وجودها»[١٠]. ويبرّر فانون عدم ضرورة مرور البلاد عبر المرحلة البورجوازية بتحليل منطقي وواقعي آخر؛ إذ يقول: «مرحلة البورجوازية في البلاد المتخلفة يجب أن تُحلّ على أساس أنها عمل ثوري لا عمل منطقي؛ فوجود هذه المرحلة ليس له أيّ مبرّر في البلاد المتخلفة إلا بمقدار ما تكون البورجوازية الوطنية قوية اقتصادياً وتكنولوجياً، بحيث يكون باستطاعتها أن تبني مجتمعاً بورجوازياً ذا اقتصاد يمكّن من خلق شروط ملائمة لنمو بروليتاريا مهمّة، وذلك عبر تصنيع الزراعة»[١١]؛ فيخلص المؤلف إلى القول: إن وجود مخطّط اقتصادي مدروس من قبل قادة الحزب السياسي ضرورة، ويجب أن يرتكز هذا المخطّط على معطيات محلية وثروات وطنية، لكي يدفع بعجلة البلاد إلى التقدم. وهنا يأتي دور الحزب الموحّد الفعّال في هذا التخطيط. وهنا يحلل فانون وضع الحزب الموحّد، مبيّناً أنّ أهمّ أخطائه استلامه الحكم؛ إذ إنه يصبح جندي الحكم، ويتحوّل بالتالي إلى أداة عشائرية ورجعية. ولا تنجح سياسة ومبادىء الحزب الواحد إلا عندما يتوزّع قادته في المناطق جميعها، لا أن يحصروا أنفسهم في المدن؛ فهذا التوزيع يؤمّن اتصالهم المباشر بالجماهير من أجل توعيتها وخدمتها. وهنا يشرح فانون أهميّة هذا الوجود المنتشر لقيادات الحزب الواحد في المناطق، ولا سيما فيما يختص باللغة التي يجب أن يُتداول بها مع هذا الشعب الأمي في أكثريته، أي أن تكون اللغة المستعملة مع الجماهير ملموسة وواقعية وعملية، وأن تلغى منها الألفاظ التقنية التي تُوهم أكثر مما تُفهم، وخاصة فيما يختصّ بموضوع

الاقتصاد حيث إنه العامل الأساسي في تطور الدولة؛ فعندما يستوعب الريفي ميكانيكية وسبل الاقتصاد الوطني وواجباته الوطنية ـ حقوقه، فإنه بمقدار ما يعي هذه الواجبات والحقوق يزداد وعيه للثورة الحقيقية العملية.

بعد ذلك يتوجّه فانون في دراسته هذه إلى عنصر هام في المجتمع، ألا وهو عنصر الشباب، الذي يتطلب ـ حسب دراسته ـ تثقيفاً وتوعيةً سياسية عملية، ليس عبر المحاضرات والخطابات، بل عبر ممارسة عملية يومية توضح له أنه القاعدة الأساسية لأيّ تطور وطني، وأنه في النهاية المسؤول الأول والمباشر في هذا المجال، وذلك عبر ممارساته ووعيه للثورة الوطنية الحقيقية.

وينتقل فانون من عنصر الشباب إلى دراسة وضع عنصر آخر لا يقل عنه أهمية ويوازيه عملياً، ألا وهو «الجيش»؛ فالجيش يجب أن يسيّس ويثقّف باتجاه ثوري وطني لا منطقي ديكتاتوري؛ لأن الجندي، حسب تعبيره، هو جندي الوطن، لا تابع لإمرة القائد «فلان»، أو للفصيلة الفلانية: «الجندي في دولة فتية، ليس مرتزقاً، بل مواطن يحمي وطنه بواسطة سلاحه»[١٢]. من هنا وجب توعيته توعية ثورية وطنية؛ لأن هذا الوعي بالذات يوحّد الوطن، ويكسر طوق العشائرية والتبعية السائدة في البلدان المتخلفة.

وهكذا نرى أنّ فانون يحلّل مختلف العناصر البشرية للدولة الفتية، ويتحدّث عن الوعي الثوري الوطني العملي، غير أنه لا يفرض مبادىء فلسفية معيّنة كالماركسية أو الماوية أو الاشتراكية، بل يترك ذلك مبهماً، تاركاً لقادة الثورة اختيار المبدأ الذي يتلاءم وشروط المجتمع المادية. ومن هنا يدخل فانون للحديث عن دور الثقافة الوطنية في الدولة الفتية. وكان قبل ذلك قد أظهر في مطلع هذه الدراسة العامل الوثيق الذي يربط بين سياسة المستعمر وأدبه؛ فأظهر على وجه التحديد دور الكاتب والفنان في مجتمع مضطهد فكرياً وعملياً. ومن خلال ذلك التحليل أظهر مراحل تطور الوعي عند الشعب المضطهد. وهو يقسمها إلى ثلاث مراحل رئيسة:

ـ **في المرحلة الأولى**، يحاول المثقّف المستعمر أن يبرهن أنه جزء أساسي في ثقافة المحتلّ.

ـ **في المرحلة الثانية**، تبدأ عملية الارتياب والشكّ؛ فيقرّر الهروب إلى عالم الأحلام والذكريات، أي إلى عالم الوهم.

ـ **في المرحلة الثالثة**، وهي مرحلة الحسم، يتحفز المثقّف للصراع ضد مضطهديه بتوعيته الشعب ودعوته للتحرّك. وهنا يتحوّل إلى مرشد للثورة.

ليست مسألة أهمية دور المفكر والمثقّف جديدة، فقد طرقها عدة مفكرين وباحثين اجتماعيين حاولوا تحديد دور المثقّف في المجتمع الثوري. وفي المرحلة الأولى، كما حدّدها فانون ـ وهي مرحلة وجود المثقف في مجتمع مستعمر ـ يكون فيها هذا المثقّف مستلَباً في آدابه ومنصهراً روحاً ومضموناً مع المستعمر وهو هنا يتوجّه

في فكره وتعبيره إلى نخبة خارجية إلى المستعمِر نفسه من أجل إرضائه.

في المرحلة الثانية يبدأ المثقّف في التفكير بواقعه، عندها يبدأ بالتحرّر من قيود استلابه فيغوص في ماضي أجداده وتاريخ بلاده كي يجد أصالة تاريخية ويردّ اعتبار شعبه وقومه الذي حطمته أغلال الاستعمار. وهذا اللجوء إلى الماضي هو نتيجة وضع سياسي يعيشه المفكر ويرفضه في الوقت نفسه. لذلك يلتجىء إلى الماضي؛ لأنه يجد فيه شيئاً من إنسانيته المحطمة على يد الآخر، أي المستعمر؛ فهو يريد بذلك إعادة اعتباره أمام هذا «الآخر»؛ ولذا قلنا عن هذه المرحلة إنها مرحلة بدء التحرر المعنوي للمضطهَد؛ إذ إنّ المفكر الافريقي المُشْبَع بثقافة الغرب، والمبهور بتراث أجداده؛ يبقى ليبرالياً وازدواجياً في أفكاره، وهو يعي تماماً أن وجود ماض مجيد لا يلغي واقعه المرّ واستغلاله القائم.

أما في المرحلة الثانية، وهي مرحلة النضال الفكري والعملي، فتظهر أهمية عاملين أساسيين: العامل الزمني، والعامل الاقتصادي. ودور المفكر هنا ليس فقط دوراً وصفيّاً أو تأمّليّاً، بل عليه أن يشارك فعليّاً في بلورة الفكر الثوري العملي بين أفراد الشعب من أجل خلق مجتمع أفضل، ومن أجل خلق الإنسان الثوري الحقيقي. وهنا يستشهد فانون بالثورة الروسية والثورة الصينية، وبالتزام مفكّريها وفنّانيها بإظهار واقعها. ومن ثم يتابع فانون تحليله هذا لدور الكاتب بإظهار الدور الأساسي الذي يستطيع أن يقوم به الكاتب في توجيه الشعب وتوعيته من خلال أدبه، كما أنه يعطي دوراً أساسياً الفنون جميعها في هذا المجال. وهو يخصّص بابين كاملين لشرح أهمية هذا الدور من أجل خلق مجتمع جديد وإنسان جديد.

وينهي فانون كتابه هذا بعرض وسائل التعذيب النفسي التي يمارسها المستعمِر على من تقع عليهم قبضة يده، وكيف أنه تحت ستار المعالجة النفسية لهؤلاء يدمرهم ويحطمهم ويجعلهم يعيشون في هاجس من الخوف على أنهم «خونة».

وخلاصة القول بعد هذا العرض التحليلي لفكر فانون أنّ الفكر السياسي عند فرانز فانون لم يكن نتيجة ثقافة نظرية، بل كان نتيجة ممارسة عملية ويومية للثورة الجزائرية. وبذلك يكون فانون قد قدّم النموذج الحقيقي للكاتب والمقاتل والطبيب الثوري الذي يشارك فكريّاً وعمليّاً في الثورة. وما كتابه الأخير إلا صورة حيّة لذلك النموذج الذي طرحه. ولو قدّر له أن يعيش طويلاً لأصبح على الأرجح زعيم افريقيا الفكري بلا منازع ورائدها نحو التقدم؛ لأنه لم يكن ليطمح إلى رئاسة رقعة أرض أو اعتلاء عرش، بل كان يطمح لخلق الإنسان الجديد الحرّ في افريقيا السوداء كلها. ولذا دعاه بيتر جاسمن «النبي الثائر»، الذي تطوّر فكرياً وسياسياً من منصهر، إلى ليبرالي، ومنها إلى ثوري عملي.

الحواشي

(١) نستند في دراستنا عن حياته وأعماله على الكاتبين:

- Pierre Bouvier, **Fanon,** Paris: Edit. Univ., 1971.
- Peter Geisman, **Fanon, The Revolutionary as Prophet,** N.Y.: Grove Press, 1971.

(٢) J.P. Sartre, **Situations**,III, **(Paris: Gallimard, 1949), P. 180.**

(٣) Frantz Fanon. Peaunoire, **masques blancs,** Paris: Seuil, 1952. P. 10.

(٤) Fanon, Frantz, **Sociologie d'une révolution** (L'An V **de la révolution algérienne),** Paris: Maspero, 1968.

(٥) Frantz Fanon, **Les damnes de la terre,** Paris: Maspero, 1968.

(٦) معذبو الأرض، ص ١٠.

(٧) معذبو الأرض، ص ٦٣.

(٨) معذبو الأرض، ص ١١٠.

(٩) معذبو الأرض، ص ١٠٧.

(١٠) معذبو الأرض، ص ١١٥.

(١١) معذبو الأرض، ص ١١٦.

(١٢) معذبو الأرض، ص ١٣٦.